صورة ديوان الجمرك المصري
من خلال الرحلات المغربية والأندلسية
من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري
(١٢-١٤م)

دكتور/ نواف عبد العزيز الجحمة

أستاذ مشارك، كلية التربية الأساسية

الهيئة العامة للتعليم التطبيقي – الكويت

الملخص باللغة العربية

تشكل المدونات الرحلية المغربية والأندلسية إحدى أبرز النصوص التاريخية التي تكشف عن جوانب من صورة ديوان الجمرك المصري، خلال الفترة الممتدة من القرن السادس الهجري إلى القرن الثامن الهجري أي (١٢ إلى ١٤م). فإنها بلا شك احتوت على مجموعة من المعطيات والأفكار والانطباعات جديرة بان تكون محط موضوع وبحث ودراسة لمعرفة اسبابها في العصرين الأيوبي والمملوكي، ونظرا لكون عناصر تلك الصورة قد وردت متداخلة في معظمها في مدوناتهم ،إلا أنني قمت بتصنيفها وترتيبها من أجل توضيح معالم تلك الصورة ،وذلك اعتمادا على ما تضمنته بعض المصادر الاخرى (المشرقية نموذجا)وكتب الرحلات.

من هذا المنطلق ارتأينا تقسيم عناصر هذا الموضوع الى اربعة نقاط رئيسية:

١- صورة ديوان الجمرك المصري كما رسمها الرحالة المغاربة.

٢- مناقشة عناصر تلك الصورة.

٣- الخلاصات والاستنتاجات.

Abstract

Constitute Blogs Moroccan Rahlah and Andalusian one of the most prominent historical texts that reveal aspects of image Egyptian Customs Bureau, during the period from the sixth century AH to the eighth century AH (12 to 14 m). They undoubtedly contained a set of data, ideas and impressions worthy to be the focus theme and research and study to find out reasons in eras Ayyubid and Mamluk, and considering the fact that the elements of that image had been received overlapping mostly in their blogs, but I've classifies them and arranged to clarify the parameters of that image, and it depending on the contents of some other sources (Eastern model) and travel books.

From this point we decided to split elements of this subject to the four key points:

1-Egyptian customs office image as painted Moroccan traveler.

2-discuss the elements of that image.

3 - abstracts and conclusions

تشكل الرحلات المغربية والأندلسية إحدى أبرز النصوص التي تكشف عن جوانب من صورة ديوان الجمرك المصري(*)، ومواقفها خلال الفترة الممتدة من القرن السادس إلى القرن الثامن الهجري. فرغم أن الصبغة السلبية طاغية على مضامينها، وهو أمر طبيعي، بحكم السياق الذي تمت فيه، فإنها بلا شك احتوت على مجموعة من المعطيات والأفكار والانطباعات جديرة بأن تكون محط موضوع وبحث ودراسة لمعرفة أسبابها. ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير يدخل موضوع هذا العرض الذي سيتم التركيز فيه على الانطباعات التي رسمها الرحالة المغاربة عن ديوان الجمرك، ونظراً لكون عناصر تلك الصورة قد وردت متداخلة في معظمها في مدوناتهم، إلا أنني قمت بتصنيفها وترتيبها من أجل توضيح معالم تلك الصورة، وذلك بطبيعة الحال اعتماداً على ما تضمنته بعض المصادر الأخرى وكتب الرحلات من معطيات حول ديوان الجمرك المصري، ثم ختمتها باستخلاص أهم ما توصلت إليه من النتائج الممكنة.

وبناء على هذا فقد ارتأينا تقسيم عناصر هذا العرض إلى ثلاث نقط رئيسية:

١. صورة ديوان الجمرك المصري كما رسمها الرحالة المغاربة.

٢. مناقشة عناصر تلك الصورة.

٣. الخلاصات والاستنتاجات.

١ــ صورة ديوان الجمرك المصري كما رسمها الرحالة المغاربة:

أ ــ نقد ديوان الجمرك في مدينة الإسكندرية:

في أواخر القرن السادس الهجري اشتكى الرحالة ابن جبير حينما زار ميناء الإسكندرية من قسوة الإجراءات الجمركية، وسوء معاملة التجار والحجاج، إذ كان ميناء الإسكندرية يغلق في الليل بسلسلة ضخمة عند مدخل الميناء لمنع السفن من التسلسل عبر الظلام قبل دفعها.وكان على كل أجنبي أن يدفع ديناراً ذهبياً ساعة وصول الميناء(١). يقول ابن جبير في وصفه: "فمن أول ما شاهدناه فيها يوم نزولنا أن طلع أدناه إلى المركب من قبل السلطات بها لتقييد جميع ما جلب فيه فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين

واحدا، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم، ومثل كل واحد عما لديه من سلع – ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما أحال عليه الحول أم لا – .

"ولما أمر المسلمون بتزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم – فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب، والديوان قد غص بالزحام. فوقع التفتيش لجميع الأسباب، ما دق منها وما وجل، واختلط بعضها ببعض، وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها، ثم استحلفوا بعد ذلك هل عندهم غير ما جدوا لهم أم لا – ثم أطلقوا بعد موقف من الذل والخزي العظيم"(٢). من الملاحظ أن هذه المضايقات والممارسات لم تختف من مسرح المرفأ في الورود أو الصدور، فها هي تتكرر مشاهد المضايقات وضروب التنكيل في أواخر القرن السابع الهجري. فقد وصف العبدري ما لقيه مع الحجاج المغاربة بالإسكندرية من نكال، وما تحملوه من أذى، إذ انتهكت الحرمات، وانتزعت الأموال من أصحابها" فمدوا في الحجاج أيديهم وفتشوا الرجال والنساء وألزموهم أنواعاً من المظالم، وأذاقوهم ألواناً من الهوان ثم استحلفوهم وراء ذلك كله"(٣).

وقد ظن العبدري أنه أمر طارئ مستحدث حتى كاشفه الشيخ نورالدين أبوعبدالله ابن حباسة الإسكندري حكاية مفادها أن لهم في هذه الفضائح أخبارًا وسلفاً غير معهود(٤).

هذا بالإضافة إلى سماعه للرواية الأخرى عن الشيخين أبي العباس أحمد السبتي الحميري عن الرحالة ابن جبير، أنه ذكر ما كان يعانيه ركب الحاج المغربي بأنواع من المغارم وألواناً من الهوان في القرن السادس الهجري، وهنا يورد العبدري في هذا المجال قصيدة طويلة كان ابن جبير قد نصح فيها صلاح الدين ودعاه إلى رفع هذه المغارم عن الحجاج(٥).

أما الرحال البلوي فيحدثنا عن هذه المضايقات بإسهاب في رحلته التي دخل فيها مرسى الإسكندرية في أوائل القرن الثامن الهجري، يقول: "وحملنا بأجمعنا إلى الديوان هناك

شاهدنا الحساب ورأينا العذاب – وفتشت الأوساط وعم الزحام والاختلاط – فأخذ من كل عشرة دنانير دينارين ظلماً وعدواناً. ما استشعرت الأسف ونسيت كل رزء سلف"(٦).

ب ــ نقد ديوان الجمرك في مدينتي – قوص وعيذاب:

لقد تحدث ابن جبير عن بعض مراحل القوافل التجارية خاصة منها المرحلة الفاصلة بين مدينتي قوص على النيل وعيذاب على البحر الأحمر. وتعتبر هذه المرحلة من أصعب المراحل التي يقطعها التجار والحجاج. وللحد من تلك الصعوبات اتخذت جملة من الإجراءات ترمي إلى تنظيم تلك القوافل تنظيماً يضمن سلامة الحجاج والتجار. لكن تجدر الإشارة إلى أن مفتشي الجمارك كانوا يقومون بإجراءات تعسفية ضد القوافل المارة من هذه المحطات، فها هو ابن جبير يصرح بأن قافلته تعرضت لمواقف الخزي والمهانة في بلاد هذا الصعيد المعترضة في الطريق للحجاج – كأخميم وقوص ومنية ابن الخصيب. وقد ضرب لنا مثلاً على ذلك منها – التعرض لمراكب المسافرين، وإدخال الأيدي إلى أوساط التجار، فحصاً عما احتضنوه من دراهم أو دنانير. وكل ذلك برسم الزكاة دون مراعاة ما يدرك النصاب منها. ومنها – أن ألزموهم الأيمان على أيديهم، ويحضرون كتاب الله العزيز تقع اليمين عليه، فيقف الحجاج بين أيدي هؤلاء المتناولين لها مواقف خزي ومهانة على حد قوله(٧).

كما عاين ابن جبير بعض الإجراءات الشنيعة من قبل عمال الجمرك القوصي بقوله: "ظهر شرذمة من مردة أعوان الزكاة في أيديهم المسال ذوات الأنصبة، فيصعدون إلى المراكب استكشافاً لما فيها، فلا يتركون علما ولا غرارة (جوالق)، إلا ويتخللونها بتلك المسال المعلونة مخافة أن يكون بتلك الغرارة أو العكم – بضاعة أو مال"(٨).

وقد اعتبر ابن جبير هذه الأعمال الذميمة من التجسس المنهي عنه في كتاب الله(٩). يقول: "وقد نهى الله عن التجسس، فكيف عن الكشف لما يرجى ستر الصون دونه من حال لا يريد أصحابها أني طلع عليها"(١٠).

أما عن مدينة عيذاب فيراها ابن جبير أنها من أحفل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن كانت تحيط بها، لكنه سرعان ما يعلن تذمره من المكوس وأصحابها، حينما عاين ما يلقاه الحاج بمدينة عيذاب من الضغط في استبدائها عنتاً مجحفاً، إذ كانت قيمة المكس المستوجب على الحاج المغربي هي: "سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية التي هي خمسة عشر دينارًا مؤمنية على كل رأس"(١١). وكان من الطبيعي أن تكون الجباية مقرونة بأمثلة من أنواع التعذيب والتنكيل للحاج عن من لم يؤد مكسه بعيذاب. وضرب ابن جبير مثلاً فقال: "ومن لا يعجز عن ذلك فيتناول بأليم العذاب بعيذاب، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعلق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة"(١٢). من أجل ذلك، ينصح ابن جبير من يمكنه ألا يراها أن يكون طريقه كله على الشام على حد قوله(١٣). يبدو أن الرحالة الذين جاءوا بعد ابن جبير في أواخر القرن السابع الهجري لم يسلكوا هذا الدرب، ما عدا الرحالة التجيبي الذي وجدناه يقلد ابن جبير في سلوك هذا الدرب الشائك بالمصاعب، وهنا يلاحظ أن هذه الممارسات والمضايقات لم تختف من مسرح هذه البلاد، ففي مدينة أخميم، يعلن التجيبي تذمره من المكوس وأصحابها، حينما أجبر على الإقامة أربعة أيام بسبب اعتقال المكاسين لمراكبهم على حد قوله(١٤).

ج ــ مديح الحكام والثناء عليهم:

وبعد حديث الرحالة عن قسوة عمال الجمرك المصري تجاه الحجاج والتجار المغاربة في الإسكندرية، وفي قوص وعيذاب نلاحظ أنهم لا يحملون الحكام المصريين مسؤولية ما يجري في الديوانة، بل كانوا يغضون الطرف عن ذلك. ونفهم من هذا أن الحكام نالوا احترام وتقدير المغاربة في هذا العصر.

فمن هذه الأمثلة – يذكر ابن جبير في مواضع عديدة(١٥) بأن الله من على الحجاج بالعمل الجليل والفعل الجميل الذي قام به صلاح الدين(١٦) بعد أن أصدر أمره برفع المكوس والمغارم عن الحجاج "فانبسطت لذلك النفوس وزاد السرور وذال

البوس"(١٧) وهذا ما جعل ابن جبير يكتب قصيدة في مدح صلاح الدين التي ورد فيه قوله(١٨).

رفعت مغارم مكس الحجاز بأنعامك الشامل الغامر

وأمنت أكناف تلك البـــلاد فهان السبيل على العابر

أما العبدري – فيذكر أنه "لولا لطف الله في تملك الأتراك(١٩) لهم ما أمكن المقام بها مسلماً، ولكن ملوكهم أهل دين وعقائد سليمة وشفقة وحنان على المسلمين، وتفضل على الفقراء وحسن ظن بأهل الدين، وهم ركن الإسلام نفعهم الله وأحسن عونهم، وقد رايت من خدمتهم للركب واحتياطهم وصبرهم وحسن محاولتهم ما تعجبت منه"(٢٠).

ومن الأمور التي دفعت العبدري إلى مدح الممالك(٢١) سلاطين مصر، أنهم كانوا يستقبلون المسلمين الغرباء بصفة عامة، والمغاربة بصفة خاصة، ويوفرون لهم كل متطلبات الحماية والأمن لصالح ركب الحجاج – يقول: "حفظ الله أمراء الترك بمصر، فما أحماهم للدين وأحضنهم على المسلمين، وأحبهم في الغريب، وأفضهم في ذات الله تعالى على المريب"(٢٢).

هذا وقد أشار العبدري إلى ما كان يلاقيه الحجاج من مشاق ومخاطر في المنطقة الواقعة بين مصر والحجاز، حيث كان يوجد فيها قوم من العرب الصعاليك الذين يقطعون الطريق عليهم. غير أن مماليك مصر كانوا يتدخلون لتأمين الطريق وآخلائها من أولئك المجرمين. يقول العبدري في هذا الصدد منوهاً بالسلطان المصري (المنصور سيف الدين قلاوون): "ولولا صاحب مصر وما ألهمه الله من الاعتناء بالركب وإخراج الحصة معه بأمير على أكمل ما يكون الاستعداد والتأهب، ما سلك أحد تلك البرية لطولها وخلائها من القطاع"(٢٣). أما البلوي فقد امتدح حكم الناصر محمد بن قلاوون(٢٤) في أوائل القرن الثامن الهجري. يقول في وصفه: "فجاءت الدنيا في أيامه غضة، وزهرة الأيام بهجة، لما فتح على يديه من الأمن والسكون والدعة وظلال المسرة الهدنة، فانسحب ذيل العز،

وأنضرب رواق الأمن، وأسدل ستر العافية على الملأ والكافة والأقطار النازحة والغريبة"(٢٥).

يتفق البلوي مع ابن بطوطة في الإشادة بحكم السلطان الناصر محمد ابن قلاوون في هذه الفترة(٢٦)، بالرغم من أن ابن بطوطة لم يشر إلى هذه المضايقات في الجمرك السكندري في الوقت الذي وصف كل ما رآه بالإسكندرية من مشاهدات وما سمع به من أخبار وطرائف وحكايات فهل معنى ذلك أنه حدث تطور إيجابي في هذا الباب؟ أوأنه سكت عن ذلك لسبب من الأسباب؟

٢ــ مناقشة عناصر تلك الصورة:

لقد أودع الرحالة في مدوناتهم مشاهدتهم وانطباعهم عن الديوانة وسلوك موظفيها، إلا أن نظرتهم كانت في الغالب ناقدة وجارحة لماعاينوه من سياسة الجور الجبائي والحيف الاجتماعي التي كان ينتهجها موظفو الدولة في مناطق تشكل نوافذ استراتيجية يستقبل فيها الوارد والصادر من الرعايا والوافدين. والجدير بالذكر أن ملاحظاتهم تلك ذات شأن كبير، ذلك لأن كل ما ذكروه ووصفوه لم يذكره مؤلف مشرقي على كثرة الذين كانوا يزورون الإسكندرية ومصر أو الذين كتبوا عنها(٢٧).

كما أننا نقدر المجهود الذي بذلوه من أجل تسجيل عدة معلومات تاريخية تهم أحوال الجمرك المصري، تلك المعلومات التي أيدت صحتها مجمل النصوص المغربية المتعلقة بالفترة المدروسة في هذا البحث.

والآن ننتقل إلى مناقشة مجموعة من القضايا التي تثيرها الصورة التي رسمها الرحالة لديوان الجمرك وذلك بالقدر الذي يسمح به هذا المقال.

أـــ أسباب ظاهرة استمرارية الجور الجبائي للرعايا المغاربة والأندلسيين:

على الرغم من أن موضوع عرضنا سيتناول الفترة من القرن السادس الهجري إلى الثامن الهجري، فإن أسباب هذه الظاهرة يمكن أن تكون بنيوية ترجع إلى فترات سابقة، ويمكن أن تكون ظرفية أي مرتبطة بالفترة التي رسمناها.

ومن الإنصاف أن نقول إن الظاهرة التي يصفها الرحالة كان لها بدون شك أسباب اقتصادية وسياسية وعسكرية، لكن من الإنصاف أيضاً أن لا نعمم نقد الرحالة للمشرفين على الديوانة وأعوانهم على أهل الإسكندرية الطيبين المعروفين بلباقتهم ولطفهم، فإنه يعني أولاً وقبل كل شيء الخطة الشاقة التي هي من نتائج عمال الدواوين.

وبناءً على ذلك يمكن أن نجمل الأسباب التي جعلت عمال ديوان الجمرك المصري يقفون ذلك الموقف المتشدد من المغاربة والأندلسيين. فيما يلي:

أـــ١) الباعث الاقتصادي

كانت تأدية المكوس من العوائق التي تعترض الحاج في طريقه، ومراحل توجهه إلى الحجاز. ولقد اشار ابن جبير إلى هذه المضايقات كما أسلفنا – فذكر ما كان يعانيه الحاج من الاستغلال في القرن السادس الهجري – وهنا يجدر بنا السؤال – فما هي الأسباب الاقتصادية الداعية إلى تفسير هذه الشكوى الصريحة في هذه الفترة؟

في الواقع تتضمن معرفة هذه الأسباب من خلال دراسة الأوضاع النقدية في مصر الأيوبية، ورغبة ديوان الجمرك المصري في الحصول على الدنانير اليعقوبية التي كان قيمتها مرتفعة في المعاملات النقدية حينذاك.

لوحظ أن الدولة الفاطمية في أواخر عهدها بلغت من التدهور الاقتصادي، والانكسار في البنية التحتية ما أن جعلها تفرض مكوساً كثيرة لم يسلم منها غير الهواء، حتى بلغ ارتفاع المكوس التي أسقطها صلاح الدين عن مصر إلى ١٨ نيف ومليوني دينار ومليوني اردب(٢٨). ويحدثنا المقريزي عن نقص الذهب والفضة في مصر نقصاً شديداً

في مطلع العصر الأيوبي، وعلى وجه التحديد سنة ٥٦٩هـ أي بعد عامين من قيام الدولة الأيوبية – فيذكر أنه قد "عمت بلوى المصارف بأهل مصر، لأن الذهب والفضة طرحا منها وما رجعا، وعد ما فلم يوجدا، ولهجت الناس بما غمهم من ذلك وصاروا قيل دينار أحمر (ذهب)، فكأنما ذكر حرمة (حريم) له وأنه حصل في يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له"(٢٩).

يبدو أن النقود الرئيسية من الذهب قد قل وجودها في الأسواق المصرية في العصر الأيوبي، ويذكر المقريزي ما يفيد أن الدراهم الفضية قد راجت من دولة بني أيوب في مصر رواجاً كبيراً، وقل الذهب بالنسبة إليها وصارت المبيعات الجليلة تباع وتقوم بهذه الدراهم(٣٠).

هذا وقد كانت ميزانية الدولة الأيوبية عامة مقدرة بالذهب مع الدنانير مع أن المصروفات لم تكن تسدد بغير الدراهم الفضية، وأول هذه الأنواع من الدراهم الأيوبية تلك الدراهم الناصرية التي أمر بضربها صلاح الدين وكانت دراهم رديئة تصل نسبة النحاس فيها إلى النصف. وهكذا كانت القيمة الاسمية التي حددها قانون النقد الأيوبي لهذه الدراهم الناصرية تتفاوت قيمتها المعدنية مما أضر بالناس حتى لقبوها في مصر والإسكندرية "بالزيوف" أي الدراهم الزائفة(٣١).

أما المعاملات النقدية في الغرب الإسلامي فنجد الارتفاع الملحوظ في قيمة العملة الموحدية المعروفة عند النصارى باسم (***Dobla***) إذ بلغ وزن العملة ٤.٧٢٩ جراماً(٣٢). وهو الوزن الشرعي كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقد اشار ابن عذاري إلى – أن المنصور الموحدي في سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ضاعف وزن الدينار الموحدي حتى يتناسب مع ضخامة الدولة وثروتها – يقول: "فرأى المنصور الموحدي، أن الدينار القديم يصغر عن مرآي ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية، وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف مرسومة فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية جامعاً بين الفخامة والنماء والطيب وشرف الانتماء(٣٣).

كما لعب الدرهم الموحدي دوره كعملة دولية في التجارة والمبادلات بين الغرب المسيحي والغرب الإسلامي حتى نهاية العهد المريني(٣٤).

هذا وقد كانت التجارة مع المشرق العربي عموماً ومصر على وجه الخصوص قائمة على العملة الذهبية(٣٥)، وعندما يدخل التجار المغاربة إلى هذه الأقطار يحملون العملة الذهبية لتصرف هناك، فقد كانت العملة المغربية الذهبية ذات الشهرة الدولية(٣٦) هي أساس وحدة النقر في التجارة هناك، والملاحظ أن تجار المغاربة الوافدين على الإسكندرية يحرصون على أن يتقايضوا أثمان سلعتهم بالعملة الذهبية المرابطية التي كانت أعلى قيمة من غيرها من النقود الذهبية المتداولة في مصر آنذاك(٣٧).

أما في أواخر القرن السابع وبدايات القرن الثامن الهجريين – نلاحظ أن شكاوى الرحالة تتكرر ولم تختف من مسرح المرفأ في مصر ساء في الورود أو الصدور، علماً بأن كل هذه الشكاوى تنصب تترى في عهد الدولة المملوكة الأولى (٦٤٨-٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م)، وهنا نتسائل عن الأسباب التي أدت بدورها إلى استمرارية هذه الظاهرة في الفترات المعاصرة للدولة المملوكية الأولى؟

أولاً: كان من الطبيعي أن تكون الاضطرابات التي صحبت سقوط الدولة الأيوبية في عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، وقيام الدولة المملوكية الأولى – مقرونة باختلال النقد واضطرابه(٣٨).

وقد كان لكثرة النقد المتداول ورواج الفلوس النحاسية خاصة اثر في ارتفاع الأسعار وغلاء المبيعات، فأصبح النقد يوزن ولا يعد، وهذه أول مرة يخسر النقد فيها صفة العد ليصبح محلاً للوزن، ولربما ترتب على ذلك ضعف ثقة المصريين في قيمة النقود وعمدوا إلى نظام المقايضة، ومن ذلك ما يرويه المقريزي قائلاً: "وأدركت أنا والناس من أهل ثغر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضرة والبقول ونحو ذلك كسور الخبز لشراء ما يراد منه، ولم يزل ذلك نحو السبعين والسبعمائة"(٤٠).

ثانياً: تعرضت العملة الذهبية في فترة حكم المماليك الأولى للتلاعب في العيار والتغيير في الوزن والتبديل في الحجم، الأمر الذي جعلها لا تحوز ثقة المتعاملين من التجار وغير التجار. أشار القلقشندي إلى أن العبرة في وزن الدنانير بالمثاقيل، قائلاً عن الدنانير التي سكت في مصر في تلك الفترة "أن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها في نظير كلفة ضربها"(٤١).

هذا وفي الوقت الذي اعترى الدنانير المماليكية ذلك الخلل، وتعرضت لتلاعب السلاطين والأمراء بغية الربح غير المشروع، نجد أن المرينيين احتفظوا بوزن الدينار الذي كان عليه أيام الوحدين وهو ٧٢٩ و٤ من الجرام(٤٢). ولعل السبب في احتفاظ المرينيين بوزن الدينار على ما كان عليه أيام الموحدين حرص بني مرين على ألا تهتز قوة الدينار الشرائية.

ثالثاً: كانت للأزمات الاقتصادية من غلاء ومجاعات دور كبير في زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات ذلك العصر فقد وقع غلاء لسلطنة العادل كتبغا(٤٣) في سنة٦٩٣هـ.

وذلك لأن بلاد برقة في لم تمطر فقحطت بلادها، وجفت الأعين فيها، وعم أهلها الجوع لعدم القوت، فخرج نحو ثلاثين ألف نفس من اللاجئين بعيالهم وأثقالهم يريدون مصر(٤٤). كذلك وقف النيل بمصر عن الزيادات فتحركت الأسعار، فتعددت المصادرات للولاة المباشرين، وطرحت البضائع بأغلى الأثمان على التجار.

وشهدت سنة ٦٩٥هـ غلاء شديداً وعظم الوباء في الأرياف وفشت الأمراض بالقاهرة ومصر وحملت الشدة إلى الأمصار، فقحطت مكة وعدم القوت باليمن وأقحطت مدن من الشام إلى حلب(٤٥).

أما في سنة ٧٣٦هـ اي قبل قدوم البلوي إلى الإسكندرية بسنة واحدة وقع الغلاء بالدينار المصري في أيام الناصر محمد ابن قلاوون، حتى عدم القمح من الأسواق وصار الخبز كالكسب من السواد(٤٦).

أـــ٢) الباعث السياسي والعسكري:

على الرغم من اعتراف الرحالة المغاربة ببراءة ساحة الحكام المصريين من السلوك الشائن من قبل عمال الدواوين في الجمرك، إلا أننا لا نلغي الربط بين هذه السياسة الجمركية الجائرة والتداعيات السياسية المعاصرة لها. وهنا نتساءل ما هي هذه التداعيات السياسية التي لربما كان لها الأثر في انتهاجية مثل هذا السلوك الشائن واستمراراه تجاه المغاربة والأندلسيين بالذات؟

أـــ توقع تملك المغاربة للمشرق:

مما يثير الملاحظة حقاً أنه في عهد الخليفة الموحدي الرابع وهو يعقوب المنصور بن يوسف (٥٨٠هـــ/ ١١٩٩م ــ ٥٩٥هـــ/ ١١٩٨م)(٤٧) تحدث صاحب المعجب عن نية صريحة لهذا الخليفة، معرباً عن رغبته في ضم المشرق إلى المغرب. قال عبدالواحد المراكشي في المعجب: "بلغني عن غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع. ويقول نحن إن شاءالله مطهروها– ولم يزل هذا عزمه رحمه الله إلى أن مات"(٤٨).

أما الشاعر الجراوي فقد ذهب إلى أقصى حدوده، مرغباً الخليفة في فتح مصر وما بعدها من البلدان.

أن الخلافة نالت من محاسنكـــم أوفى الحظوظ فزيدت منظراً عجبـــا

سينظم السعد مصرا في ممالكـــه حتى تدوخ منهـــا خيـــلـــه حلبـــا

إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى أقصى خرسان يلقى جيشه الرعبا(٤٩)

أما ما عبر عنه الرحالة ابن جبير فهو الارتقاب الشعبي والجماعي في المشرق، وفي مصر على وجه الخصوص لوصول الموحدين. ولعل إبراز ما ذكره من الروايات الشعبية عن رغبة الشعب المصري في حكم الموحدين وتشويقهم إلى وصولهم فهو: "ومن عجيب ما شهدنا في أمر الدعوة المؤمنية الموحدية وانتشار كلمتها بهذه البلاد واستشعار أهلها

لملكتها"، أن أكثر أهلها منهم، بل لكل منهم يرمزون بذلك رمزاً خفياً، حتى لا يؤدي ذلك بهم إلى التصريح، وينسبون ذلك لآثار حدثانية وقعت بأيدي بعضهم، أنذرت بأشياء من الكوائن، فعاينوها صحيحة.

"فمن هذه الآثار المؤذنة بذلك عندهم أن جامع ابن طولون والقاهرة برجين مقتربين عتيقي البناء أحدهما تمثال ناظر إلى جهة الغرب، وكان على الآخر تمثال ناظر إلى المشرق، فكانوا يرون أن أحدهما إذا سقط أنذر بغلبة أهل الجهة التي كان ناظر إليها على ديار مصر وسواها".

وكان من الاتفاق العجيب أن التمثال الناظر إلى المشرق، فتلا وقوعه استيلاء الغزو على الدولة العبيدية، وملكهم ديار مصر وسائر البلاد. وهو الآن متوقعون سقوط التمثال الغربي وحدثان من ما يؤملونه من ملكه أهله لهم، ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً، ويقطعون بصحبتها، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التي لا يمترون في إنجاز وعدها.

"شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواها مشافهة وسمعاً، أمراً غريباً يدل على أن ذلك الأمر العزيز أمر الله الحق ودعوته الصدق، ونمى إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حرر خطياً أعدها للقيام بها بين سيدنا أمير المؤمنين – وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة، وينتظر انتظار الفرج بالصبر الذي هو عبادة"(٥٠).

ومن الروايات أيضاً ما أورده ابن جبير عن التحصنات العسكرية والقناطر التي شرع في بنائها صلاح الدين بغربي مصر، وذلك تحسباً لحادثة قد تصدر من عدو يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض النيل، وانغمار الأرض به وامتناع سلوك العساكر بسببه – "ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحدثانية، يرون أن حدوثها إيذان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات المشرقية"(٥١). يبدو أن الدعاية الموحدية حققت مغزاها بدليل امتلاء النوادي بالحديث عنها، فالجمهور المصري في هذه المرحلة إن

لم يكن قبلها بقليل يتوقون إلى من يخلصهم من تعسفات الولاة الطاغين الذين ينتهجون الجور الجبائي والحيف الاجتماعي ضد المستضعفين، وهذا ما لاحظه ابن جبير عن كثب عن احتكاكه بالناس في مصر، كما أن نص ابن جبير يمثل إشارة واضحة إلى موقف المصريين واستعدادهم للانضواء تحت لواء أية سلطة سياسية بديلة تأتي من المغرب، وهو موقف يحيلنا طبعاً عن التوتر في العلاقات بين الدولتين حول مسألة مشروعية الخلافة والطرف الأحق بالارتداء إشارتها(٥٢). هذا ويذكر العبدري الذي زار مصر في النصف الثاني من القرن ٧هـ/١٣م. أن من الأمور المعروفة بين المصريين اعتقادهم في أن أحد المغاربة سيصل إلى السلطة ويصبح ملكاً عليهم، لدرجة أنهم يرتقبون ذلك، يقول العبدري بهذا الصدد: "وقد فشا على لسان الصغير منهم والكبير أن مغربياً يملكهم لا محالة ويتحدث بهذا عامتهم وخاصتهم(---) وقديماً كانوا في انتظار ذلك، وقد حكاه عنهم ابن جبير في رحلته"(٥٣). يبدو أن العلاقات الخارجية بين مصر والمغرب كانت بطيئة تسير على مضض تارة مصحوبة بالتوتر الخفي، وتارة أخرى بالتربص المستمر، لذا لا نستبعد تأثير هذه الدعاية على نفسية الموظفين والمشرفين على الديوانة الذين يستقبلون الوارد والصادر على مرور الأوقات.

ب ــ الخطر الصليبي المتربص في المياه الإقليمية:

أدرك الصليبيون أهمية مصر الاستراتيجية والعسكرية والاقتصادية، فقد حاولوا الاستيلاء عليها، ولكن سرعان ما باءت محاولتهم بالفشل الذريع، لهذا اتجهوا إلى ضربها اقتصادياً، وذلك بفرض الحظر الاقتصادي عليها في البحر المتوسط وتهديد تجارتها في البحر الأحمر.

ففي البحر المتوسط كانت أعين الصليبيين متربصة على مدينة الإسكندرية التي أصبحت قاعدة للاسطول المصري وقتئذ، والثغر التجاري الأول في مصر الذي تفد عليه السفن التجارية من المشرق والمغرب.

يذكر صاحب الاستبصار الغارة الصقلية على الإسكندرية سنة٥٧١هـ/١١٧٥م على عهد صلاح الدين(٥٤)، وذلك استجابة لمؤامرة دبرها أيضاً الفاطميون في مصر، تمهيداً للقضاء على الدولة الأيوبية، وإعادة الدولة الفاطمية(٥٥).

كما يذكر أبوشامة في الروضتين نص رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الديوان العزيز ببغداد سنة٥٧٨هـ – يبين فيها أن الأعداء والكفار متربصين به بين الحين والآخر، فمنهم – "صاحب قسطنطينية، صاحب صقلية، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة والبياشنة والجنوية".

ثم يوضح لنا أن هؤلاء "تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم، وتارة يكونو سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة – وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويقترب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلادة"(٥٦). وفي سنة٦٦٨هـ اهتم الظاهر بيبرس(٥٧) بأمر الشواني وأمر بنصب مائة منجنيق على أسوار الإسكندرية، استعداداً لتلقي الصليبيين بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا "ريد فرانس"، إذ بلغه تأهبهم لغزو مصر من الإسكندرية.

غير أن هذه الحملة التي كات موجهة إلى مصر تحولت إلى تونس في عهد المستنصر الحفصي(٥٨).

وفي محرم سنة ٧٦٧هـ تعرضت الإسكندرية لغزوة بحرية قام بها القبارصة بقيادة بيبردي لوزثيان – المعروف باسم (بيير بطرس) صاحب قبرص" ووقعت هذه الغزوة في عهد السلطان الأشرف أبوالمعالي زين الدين شعبان بن حسين (٧٦٤–٧٧٨هـ/ ١٣٦٣–١٣٧٦م)(٥٩). هدفها في الحقيقة اقتصادي على حد تعبير النويري (٦٠)، باعتبارها أغنى مدن البحر المتوسط وقتئذ، وبعد أن عاد الطريق التجاري عبر الأراضي المصرية إلى حيويته. إلا أن العلاقات ظلت متوترة بين مصر وقبرص. ففي سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م أرسل بطرس الثاني ملك قبرص حملة هاجمت الإسكندرية، فاضطر السلطان

الأشرف شعبان إلى توقيع الصلح مع القبارصة وعادت العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا(٦١).

من جهة أخرى كان لسقوط عكا سنة ٦٩١هـ/ ١٢٩١م دور في حركة المقاطعة الأوروبية للمواقع التجارية في مصر، هدفها ضرب الاقتصاد المصري ليسهل ضربها عسكرياً، وكان ذلك نتيجة لموقف البابوية التي عمدة إلى وضع القيود في وجه التجار. وقد استجابت المدن الإيطالية في بادئ الأمر لقرار مقاطعة الاتجار مع مصر خوفاً من قرارات الحرمان الكنسي التي هددتهم بها البابوية(٦٢)، إلا أن القرارات البابوية لقيت اعتراضات من جانب التجار الأجانب. وهنا رضخ البابا واقتصر الخطر على المواد الحربية.

لا شك أن الصليبيين أدركوا أن أرباح الإسكندرية كانت تذهب كلها لتسليح المماليك في هذه الفترة خصوصاً وأن الثروة المصرية تأتي من البلاد المجاورة لها.

وهي التي تمدها بمواد الشرق، لذلك منع جميع الأمم المسيحية من التعامل مع مصر وتغيير الطريق التجاري من مصر إلى آسيا عبر الخليج العربي(٦٣)، كما أنه يكفي إذا امتنع الصليبيون لفترة زمنية معينة عن شراء السلع والبضائع من التجار المشارقة، وإلا يذهبوا إلى هذه الثغور، فإن هذا كاف لإفلاس ميزانية الدولة(٦٤).

وعلى أثر هذا الحصار لوحظ ارتفاع الضرائب التي فرضها المماليك على الوافدين، إذ أن الرسوم المتحصلة من ثلاث سفن كانت تصل إلى ثمن حمل إحدهما (٦٥) ومن هنا نستطيع إدراك أن قضية الحصار الاقتصادي على الإسكندرية في هذه الفترة تؤثر بصورة أو بأخرى على استمرارية التشدد الرقابي في الجمرك السكندري حينئذ.

كذلك تعرض البحر الأحمر للخطر بسبب المد الصليبي في سنة٥٧٧هـ/ ١١٨١م، وذلك حين فكر أحد القادة الصليبية يدعى رينو الشاتيوني (***Renaud de chatillon***) والمعروف في المصادر الإسلامية (أرناط) صاحب أمارة الكرك (شرقي البحر الميت) في الاستيلاء على المدينتين المقدستين مكة والمدينة. وكان القصد في محاولته هذه في

البحر الأحمر هو أن يضرب اقتصاد مصر، وذلك بتحويل تجارة هذا البحر إلى خليج العقبة وإلى الموانئ الصليبية بالشام. هذا وكانت محاولة أرناط هذه أول محاولة اعتداء أوروبية في مياه البحر الأحمر(٦٦).

في العالم التالي سنة٥٧٨هـ/ ١١٨٢م، أعد أرناط حملة ثانية إلى قلب البحر الأحمر وهاجم أسطول ميناء عيذاب ونهب إحدى قوافل التجار التي كانت تعبر صحراء عيذاب متجهة إلى قوص، ويفهم من ابن جبير – أن الحملة الصليبية قطعت طريق التجارة وأن الصليبيين أحرقوا في البحر الأحمر ستة عشر مركباً، وأخذوا في البر قافلة تجارية كبيرة جاءت من قوص إلى عيذاب وقتلوا جميع من فيها، كما أضاف أن الصليبيين استولوا على مركبين كانا مقبلين من التجار اليمن، واحرقوا أطعمة كثيرة على ساحل عيذاب كانت معدة لميرة مكة والمدينة. وذكر أن كان من أهداف الصليبيين دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسرقة جسده الطاهر. يقول ابن جبير:"ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة،وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم،وإخراجه من الضريح المقدس..ولم يكن بينهم وبين المدينة اكثر من مسيرة يوم.فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ مع أنجاد من المغاربة البحريين.فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن أخرهم..وقتلوا وأسروا،وفرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم الى مكة والمدينة"(٦٧). هذا وقد أكد صلاح الدين الأيوبي في خطابه للخليفة العباسي الناصر لدين الله، أن هدف الصليبيين هو القضاء على تجارة الكارم في البحر الأحمر، كما يفهم من عبارة المؤرخ أبوشامة "وأما الطريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدر أن يمنع الحاج عن حجه ويحول بينه بين فجه، وأخذ تجار اليمن وأكارم عديدة ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح المحارم ويهيم جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم"(٦٨).

يبدو أن هذه الأخطاء المتلاحقة هي ما جعلت الدولة الأيوبية قوية في أمنها الداخلي وشديدة في مراقبة ثغورها وقتئذ. يلاحظ ابن جبير أن الأمن مستتب في الطرق البرية بين موانئ مصر على البحر الأحمر وبين النيل ووادية، فهو يقدم لنا شهادة طيبة عن

الطريق بين عيذاب وقوص وهي اشق مراحل الطريق في مصر بين البحر الأحمر والإسكندرية(٦٩). غير أنه أشار في الوقت ذاته إلى استغلالية موظفي الجمارك للرعايا والوافدين، إذا يأخذون أموالهم بالباطل بحجة رسم الزكاة، ويدققون في التفتيش على السلع والبضائع للقوافل الصادر منها والوارد. ربما أن موظفي الجمارك اتخذوا من القوانين الأمنية الصارمة فرصة مواتية لتحقيق مآربهم الشخصية.

من جانب آخر – بالرغم من رعاية سلاطين المماليك في تأمين الطرق والقوافل التجارية عبر الصحراء الشرقية وموانئ البحر الأحمر الغربية التي ترد إليها القوافل التجارية وأخصها ميناء عيذاب (٧٠)، إلا أنه يلاحظ غياب الرقابة المملوكية أيضاً على هذا الميناء، الأمر الذي أدى إلى فداحة الرسوم التي كانت تحصلها من التجار والحجاج سواء بالتحايل عليهم أو طريق التعزير وابتزازهم في شراء قرب الماء أو شحنهم في الجلبات دون اعتبار لقدرات هذه الجلبات على حمل أعدادهم(٧١) مما يعرضهم للغرق. يضاف إلى هذه أيضاً اختلال الأمن ببرية عيذاب، في الفترة الأخيرة من دولة المماليك البحرية، بسبب ثورات العربان واعتداءات القبائل النوبيين(٧٢) وقد يرجع السبب في تحول التجارة من عيذاب إلى القصير إلى جشع المماليك وإلى رغبتهم في الحصول على أكبر قدر من المال في أواخر عصر المماليك البحرية(٧٣)، خصوصاً بعد أن أصبحت عيذاب مقسمة بين المماليك والجباة، يقتسمان جبابتها نصفين(٧٤).

ج ــ أسباب مديح السلاطين المصريين وتمجيدهم:

من الأمور التي جعلت الرحالة المغاربة يثنون على السلاطين المصريين – ما يلي:

١) تتعدد الآراء في فهم دواعي هذا التكريم، لكن لا أحد يجادل في أن أحد أسبابها الرئيسية تتمثل في أبطال عدة المكوس وبدون شك كان الحجاج المغاربة من ضحاياها. فابن جبير يذكر من مفاخر صلاح الدين – إزالة رسم المكس المضروب على الحجاج مدة دولة الفاطميين، وبعض الرسوم الذي يدفع عوضاً منها ما يقوم مقامها من الأطعمة وسواها، لأن هذه الرسوم كانت باسم ميره مكة والمدينة، هذا بالإضافة إلى أنه

محا كل الرسوم التي كانت في البلاد المصرية سواها، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس، فضلاً عما سواه على حد قوله (٧٥). هذا وقد شهد ابن جبير على نفسه – على عدالة صلاح الدين وتأمينه للسبل "حتى إن الناس لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعنيهم، ولا يستشعرون لسواده هيبة تثنيهم" على حد تعبيره(٧٦).

أما في عهد السلطان المنصور سيف قلاوون، فيذكر المقريزي(٧٧) أنه عندما تولى السلطنة (سنة٦٧٨هـ) أبطل عدة مكوس. وإن ذكر العبدري بأن حرس الديوان بالإسكندرية كانوا يأخذون المكس من المغاربة ظلماً وعدوانا وأفاد العبدري بأن السلطة المملوكية الممثلة في شخص المنصور قلاوون كانت تخدم وتعتني بالحجاج ومن ضمنهم المغاربة فهي تسهر على أمنهم وسلامتهم(٧٨).

أما السلطان الناصر محمد بن قلاوون فيتفق – ابن بطوطة والبلوي في الإشادة بعدالته وسيرته وفضائله العظيمة وانتمائه لخدمة الحرمين الشريفين، وما يفعله من أفعال البر التي تعين الحجاج في الدربين المصري والشامي في كل سنة، حتى فتح الله على يده الأمن والسكون والدعة وبهذا تحقق في زمنه العافية على الملأ والكافة والأقطار التابعة له(٧٩).

٢) لقد لعب السلاطين المصريون في هذه الفترة دوراً طلائعياً في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، فعلى سبيل المثال. قاوم صلاح الدين الوجود الصليبي في كل مراحل حياته حتى تسنى له النصر المبين في معركة حطين الشهرية سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م. كما حقق المماليك أول انتصار إسلامي على القوى المغولية، في معركة عين جالوت سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٦٠م، وسعوا في إحياء الخلافة العباسية التي كانت قد انتهت من العراق باجتياح المغول لبغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وبهذه الخطوة أصبحت القاهرة مقراً للخلفاء العباسيين، وبذلك أصبح المماليك هم حماة الخلافة الإسلامية في مصر، كما شهد عهد السلطان الظاهر بيبرس حروباً ضد القوى الصليبية، فاسترد منهم عدة مدن ما بين سنتي (٦٦٢-٦٧٣هـ/ ١٢٦٤-١٢٧٤م)(٨٠). وقد أشار العبدري إلى اهتمام السلطان المنصور سيف الدين قلاوون بالجهاد ضد الصليبيين حيث قرر التجهيز لغزو عكا

نتيجة أحداث حصلت على عكا ضد التجار المسلمين لما اعتبره نقضاً لكل الهدن والمواثيق ولكن وهو في ذروة استعداداته توفي، في طريقه إلى عكة(٨١).

كما اشاد البلوي بالسلطان الناصر محمد ابن قلاوون حيث بين أن عهده رمز الازدهار المملوكي تماماً، كما كان في عهد الظاهر بيبرس، في زمن التأسيس، ذلك أن نشاط هذا السلطان لم يقتصر عل الحروب والغزوات، وإنما شمل مختلف نواحي الحياة، لذا ترك بصمات على مظاهر التقدم السياسي والثقافي والعمراني والاقتصادي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري.

٣) لم تكن تنقص الرحالة المغاربة صفة المهارة الدبلوماسية وهم يبرؤون الحكام المصريين من مسؤولية ما يجري في ديوان الجمرك المصري في الإسكندرية، وقوص، وعيذاب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنهم رجال دولة وسفراء ناجحين – ومن يدري؟ لعلهم كانوا يؤمنون بالنصيحة التي أسداها السفير القاضي أبوبكر بن العربي في رحلته حين دخل إلى بغداد وتعرف بسلطانها: "نعمة المعرفة التعرف بالسلطان، والتشرف به عند التغرب عن الأوطان، ونعم العون على العلم والرياسة بالأمن والاستيطان"(٨٢).

٣ــ الخلاصات والاستنتاجات:

بعد استعراضنا لعناصر ومكونات الصورة التي أنتجها الرحالة المغاربة عن ديوان الجمرك المصري من القرن السادس الهجري إلى القرن الثامن الهجري، وللوقوف عند مضامينها يجدر بنا أن نسجل الخلاصات التالية:

١. تميز وصف الرحالة لديوان الجمرك المصري بالدقة والتركيز على المساوئ، مما جعل الصورة سوداوية مزعجة في تراكم الظواهر السلبية (المكوس، الزكاة في غير محل نصابها، التفتيش المدقق). إنها صورة امتزج فيها الخوف والحزن من جهة والنفور والاستيلاء من جهة أخرى.

٢. كانت مرجعية الرحالة المغاربة في انتقاد الديوان هي التعاليم الإسلامية، خاصة منها التي تتعلق بمجال الأخلاق والمعاملات لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "الدين المعاملة".

٣. كانت العملة المغربية الذهبية ذات الشهرة الدولية هي أساس وحدة النقد في التجارة في ذلك العهد، كما كانت أغلى قيمة من غيرها من العملات المتداولة في مصر.

٤. إن التشابه في المنظور النقدي في خطاب الرحالة المغاربة للديوان استشهاد أساسي بانفصال سلطة الجمرك المصري عن دائرة السيادة الحكومية، لكونها تشكل محطة إجبارية في خط النقل نحو الحجاز أو العودة منه(٨٣).

٥. قد نال الحكام المصريون الأيوبيون والمماليك استحسان وتقدير الرحالة المغاربة لما يقدمونه من خدمات جليلة للتجار والحجاج المغاربة. هذا إلى جانب إيمانهم العميق بوحدة الأمة الإسلامية ووحدة مصيرها، فهم يتبعون استراتيجية في تحقيق أمور أساسية مثل التوجه لمحاربة الصليبيين ونشر التعليم في الأمة وتوحيد الأمة وحشد طاقاتها.

وأخيراً، تتجاوز الرحلة المغربية محتواها كمجرد مذكرات، إلا أنها تعتبر مصدراً هاماً من مصادر التاريخ الإسلامي، ذلك أنها حافظت على التراث المشرقي كما هو، ولأنها تتسرب لتكشف لنا عن الخبايا التاريخية في المشرق، في الوقت الذي لم تستطع المصادر المشرقية تدوينها.

بيبليـــوغرافيـــا

(*) الجمرك: رسوم تدفع لحكومة بلد ما عن السلع التي يجلبها الناس من بلد آخر، ربما يفحص مفتشو الجمارك كل الأمتعة التي يجلبها المسافرون، وتفرض على هذه الأصناف رسوم جمركية. انظر إلى الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ج٨، مادة الجمارك.

١- عطية القوصي، تجارة مصر في البحر الأحمر، القاهرة، دار النهضة، ١٩٧٦م، ص٢٣٥.

٢- ابن جبير، الرحلة، بيروت، دار الشروق، ص١٢.

٣- العبدري، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ص٨٥، ٨٦.

٤- المصدر نفسه، ص٨٦.

٥- المصدر نفسه، ص٨٦، ٨٨.

٦- البلوي القنتوري، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات، ج١ ص١٩٧.

٧- ابن جبير، الرحلة، ص٣٣.

٨- المصدر نفسه، ص٣٤.

٩- سورة الحجرات، آية١٢.

١٠- ابن جبير، الرحلة، مصدر سابق ص٣٤.

١١- المصدر نفسه، ص٢٧.

١٢- المصدر نفسه، ص٢٧.

١٣- المصدر نفسه، ص٤٠-٤٢.

١٤- التجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، ليبيا – تونس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص١٧١.

١٥- ابن جبير، الرحلة، مصدر سابق، ص١٥، ٢٧، ٤٧.

١٦- هو يوسف بن أيوب بن شادي وقد ولد سنة ٥٣٢هـ في قلعة تكريت على نهر دجلة شمالي سامراء بالعراق، وقد كان من صفات صلاح الدين أنه لما آلت إليه السلطة في مصر احترام عقائد الناس شيعيين فاطميين كانوا أم سنيين، مسيحيين أقباطاً أم المسلمين، وأخلص لهم العمل وعدل بينهم، فأحبه الجمهور حتى أن الأقباط المصريين وضعوا صورته في الكنائس ما استدعى دهشة الشاعر عبدالمنعم الأندلسي فسجل مشاعره في قصيدة: فحطور بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم.

انظر إلى: قدري القلعجي، صلاح الدين الأيوبي، دمشق، دار كتاب العربي ١٩٧٩م، ص٢٠١. سيدة اسماعيل كاشف، صلاح الدين الأيوبي بطل الصف العربي الإسلامي وبطل الجهاد في سبيل الله، بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٩م، ص٦٨.

١٧- الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، مخطوط الخزانة الحسينية، رقم ١٩١١، ورقة ٢٨٨ أب.

١٨- العبدري، الرحلة المغربية، ص ٩٤ – ٩٦.

١٩- كان يحكم مصر أثناء وصول العبدري إليها السلطان المنصور سيف الدين قلاوون المعروف بالألفي الصالحي (٦٧٨-٦٨٩هـ/ ١٢٧٩-١٢٩٠م)، وعندما رجع من الحج وجد السلطان الجديد صلاح الدين خليل الأشرف بن قلاوون (٦٨٩-٦٩٣هـ/ ١٣ إلى غاية منتصف القرن ٨هـ/ ١٤م أنطوان خليل ضوبط، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت، دار الحداثة، ط. الأولى، ١٩٨٠م، ص١١.

٢٠- العبدري، الرحلة المغربية مصدر سابق، ص١٢٨.

٢١- المماليك: استغرقت دولة المماليك في مصر ما يقرب من ثلاثة قرون، وهم أقوام جلبوا من مناطق مختلفة من العالم الإسلامي، تولوا الحكم على مصر والشام بعد انهيار أمر الدولة الأيوبية. محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، بيروت، دار النفائس، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ص١٥-٢٨.

٢٢- العبدري، الرحلة المغربية، مصدر سابق، ص١٤٩.

٢٣- المصدر نفسه، ص١٥٤.

٢٤- الملك الناصر المعروف تحت اسم محمد بن قلاوون كان سلطاناً ثلاث مرات وكان مملوكاً في الأصل للملك الصالح، ملك ما قبل الأخير من السلاطين الأيوبيين (٦٢٨-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م) انظر إلى: محمد جمال الدين سرور، دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر العربي، (ب.ت).

٢٥- البلوي، تاج الفرق، ج١، ص٢١٦، ٢١٧.

٢٦- انظر إلى حكاية (الملك الناصر يعقد للمظالم). ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، قدم له وحققه عبدالهادي التازي، الرباط، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م، ج١، ص١٢٧-٢١٨.

٢٧- صلاح الدين المنجد، المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى، بيروت، دار الكتاب الجديد،ط. الأولى، ١٩٦٣م، ص٦٤.

٢٨- المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، ١٨٥٣م، ١٧٠، ص١٠٤-١٠٥.

٢٩- الأب انستسا الكرملي، رسائل في النقود العربية، القاهرة، الثقافة الدينية، ط. الثانية، ١٩٨٧م، ص٦٦، ٦٧.

٣٠- المقريزي، إغاثة الأمة بكشف الغمة، حمص، ١٩٥٦م، ص٦.

٣١- منصور بن بعرة الذهبي، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبدالرحمن فهمي، ١٩٦٦م، ص٤٠.

32- Massignon,I-,Le maroc dans les premieres annees du XVle, siecile, Agler, 1906,pp.102-1 ،3.

٣٣- ابن عذاري، البيان المغرب، ج٣، ص١٥٤.

٣٤- صالح بن قربة، علم النميات على عهدي الموحدين والمرينيين، ص١٣.

٣٥- قد بلغ الدينار المرابطي نسبة نقاوة الذهب فيه حوالي ٩٥% وان مصطلح (***marabotin***) ظهر لأول مرة في إسبانيا عام ٤٧٧هـ، ١٠٨٤م، وقد استعمل الدينار المرابطي وحدة النقد في الغرب المسيحي. ففي سنة ١١٦٢م وعد كونت بروفانس أن يدفع ١٢.٠٠٠ دينار مرابطي للأمبراطور و٢٠٠٠ الأمبراطور و١٠٠٠ للبلاط. صالح بن قربة، انتشار المسكوكات المغربية وأثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ندوات ومناظرات ٤٨، ١٩٩٥م، ص٧٨.

36- Ronald A. Messier, The Almoravids: west Africa, p.33.

٣٧- صالح بن قربة، انتشار المسكوكات المغربية أثرها على تجارة الغرب المسيحي في القرون الوسطى، ص١٧٥.

٣٨- حسن إبراهيم، الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٠٤.

٣٩- المقريزي، إغاثة الأمة، ق.

٤٠- المصدر نفسه، ص٩.

٤١- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، القاهرة، ١٩١٣م، ج٣، ص٤٤١.

٤٢- ابن خلدون، العبر، ج١ ص٢١٩. عبدالعزيز بن عبدالله، مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، ط الأولى ١٩٥٧م، القسم الأول ص٧٥ – ٧٦.

٤٣- هو العادل زين الدين كتبغا – هو مغولي الأصل من أسرى موقعة حمص الأولى عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م جعله قلاوون من مماليكه، فلما آلت إليه السلطنة رقاه في وظائف الدولة حتى اضحى من كبار الأمراء. اتصف كتبغا بقصر النظر السياسي، وقد أقدم على عدة خطوات أدت إلى سوء سمعته بين الناس وكراهيتهم لحكمه. انظر إلى محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر والشام، بيروت، دار النفائس، ١٩٩٧، ٢١٦-٢٢٢.

٤٤- القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٣٤٥، ٣٩٦.

٤٥- المقريزي، إغاثة الأمة، ص٣٣-٣٤.

٤٦- المصدر نفسه، ص٣٩.

٤٧- انظر في ترجمته: المراكشي، عبدالواحد بن علي، من كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، اختيار وتقديم أحمد بدر، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المختار من التراث العربي، ١٩٧٨، ص٩١-١٨٢.

٤٨- المصدر نفسه، ص١٨٢.

٤٩- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، (القسم الموحدي)، تحقيق هويثي ميرندا ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط١، ١٩٨٥م، ص١٨٢-١٨٣.

٥٠- ابن جبير، الرحلة، ص٤٨-٤٩.

٥١- المصدر نفسه، ص٢٤.

٥٢- انظر إلى: عزالدين عمر وموسى، دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، دار الشروق، ١٩٨٣م، ص٣٢-٤١.

٥٣- العبدري، الرحلة المغربية، ص١٤٩. كما سجل أبوسالم العياشي (ت.١٠٩٠هـ/ ١٦٧٩م) في هذا الشأن أيضاً قولة صريحة لأحدى المتصوفات بمصر، تدعى الست نعيمة، أبانت فيها عن قرب مجيء سلطان مغربي إلى مصر ليخلص مجتمعها من ظلم ولاة العثمانيين – إن الدولة العثمانية قد انقرضت لظلم أهلها وأن السلطان يأتينا من وراء فاس يبطل المكحلة والكابوس والمدفع ويمشي الذئب مع النعجة" انظر: أبوسالم العياشي، ماء الموئد، أفسيط دار المغرب، الرباط١٩٧٧، ج٢، ص٣٦٢.

٥٤- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، مخطوط، س ب – ٤٩. سعد زغلول، ملاحظات عن مصر كما رآها الجغرافيون والرحالة المغاربة في القرنين ٦ و٧ للهجرة، جامعة الإسكندرية، م٨ و ١٩٤٥م، ص١١٥.

٥٥- عبدالعزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي من العصر الفاطمي إلى الفتح العثماني، بحث صدر كتاب تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور الإسكندرية، ص١٩٦٥، ص١٩١-١٩٢.

٥٦- المصدر نفسه، ص١٩٣.

٥٧- بيبرس بن عبدالله، سلطان الظاهر ركن الدين أبوالفتح الصالحي كان قبجاقي الاصل. ولد سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م. أسر ثم اشتراه علاءالدين البندقدار، اشتغل في المنازعات السياسية أيام الأيوبيين، وحارب مع قطز ضد التتار في عين جالوت، فلما تم النصر تأمر الظاهر ضد المظفر فتم قتله وتسلطن بيبرس، توفي سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م. انظر إلى: محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق احسان عباس، بيروت، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٣٥-٢٤٧.

٥٨- عبدالعزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص١٩٨-١٩٩.

٥٩- السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، ولي سلطنة المماليك بعد ابن عمه السلطان المنصور حاجي، وكان عدم الحيلة في أول حكمه وكل الشؤون بين الأمير يلبغا، فلما قتل يلبغا استقل بالحكم، كان فاسد الخلق، فتحالف كبار الأمراء ضده وقتلوه سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، انظر بن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، القاهرة، ١٩٦٦م، ج٢، ص٢٨٨.

٦٠- النويري، الإلمام بالأمور المقضية في واقعة الإسكندرية، مخطط بدار الكتب المصرية، رقم ٤٤٧، ح٢، ورقة، ٣٨٢-٢٨٣.

٦١- محمد عبدالغني الأشقر، تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص٩٠-٩١.

٦٢- عبدالعزيز محمود عبدالدايم، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط، مقال في كتاب مصر وعلم البحر المتوسط، ص١٥٣.

٦٣- رأفت عبدالحميد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٢٢.

٦٤- سعيد عاشور، أضواء جديدة على الحروب الصليبية، ص٥٩.

٦٥- إبراهيم حسن سعيد، البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٣١٠.

Heyd w. Histoire du commerce du levant au moyen age, leipziq 1925, II, p 25.

٦٦- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٣٠٣هـ، ص١١-١٨٤. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٧م، ج٢، ص١٨. السيد الباز العريني، مصر في العصر الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٦٩-٧٠.

٦٧- يذكر الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي استنادا على وصف الرحالة ابن جبير- ان الصليبيين حاولوا في عهد صلاح الدين الايوبي السيطرة على هذا البحر والوصول الى الاماكن المقدسة بالحجاز والعبث في الحرمين الشريفين.ولكن صلاح الدين تصدى لهم، وارسل امير البحر الحاجب حسام الدين لؤلؤ الذي تمكن من هزيمتهم واسرهم ثم ذبحهم ذبح النعاج في منى حتى لايعرف احدا شيئا عن هذا البحر الاحمر الذي اعتبره المسلمون بحرا اسلاميا خاصا بهم. ابن جبير، الرحلة، ص٣٠؛ العبادي،احمد مختار،دراسات في تاريخ الحضارة الاسلامية العربية،منشورات ذات السلاسل،ط٢،الكويت،١٩٨٦،ص ١٩٢

٦٨- أبوشامة، الروضتين في أخبار الدوليتين، القاهرة، ١٢٨٧هـ، ج٢، ص٣٧.

٦٩- ابن جبير، الرحلة، ص٣٨.

٧٠- انظر إلى: المقريزي، السلوك، ج٢، ص٢٥٨، ٢٨١، ٥٠٦، زكي النقاش، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨م، ص٩٨.

٧١- ابن جبير، الرحلة، ص٤١-٤٢.

٧٢- المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٠٩-٣٥٢؛ عطية القوصي، من تاريخ بلاد النوبة، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة، ١٩٨١م، ص١١٦-١٢٥.

٧٣- أحمد عبدالرزاق أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، القاهرة، ص٣٥-٣٩.

٧٤- بن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٣٠

٧٥- ابن جبير، الرحلة، ص٢٧.

٧٦- المصدر نفسه، ص٢٧-٢٨.

٧٧- المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢٣٨.

٧٨- العبدري، الرحلة المغربية، ص١٢٨.

٧٩- ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢١٧. البلوي، تاج المفرق، ج١، ٢١٦-٢١٧.

٨٠- نعمان محمود جبران، ومحمد حسن العمادي، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، الأردن، حمادة للخدمات والدراسات الجامعية، ط الأولى، ٢٠٠٠م، ص٢٨١-٢٩٤.

٨١- العبدري، الرحلة المغربية، ص١٦٦.

٨٢- ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن بالأمامة على المستضعفين، تحقيق د. عبدالهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الثالثة ١٩٨٧م، ص١٨٥-١٨٦. تعليق ٥-٦.

٨٣- الجدير بالذكر أن شكاوى حجاج الشرق الإسلامي في تاريخ الحجاز الحديث (جمرك جدة نموذجا)، تتطابق ضمنا مع شكاوى حجاج الغرب الإسلامي في تاريخ الجمرك المصري الوسيط. يبقى أن التشابه في المنظور النقدي لدى الرحالة تجاه المكوس استشهاد أساسي على تراكم الظاهرة السلبية.رفعت باشا،مرآة الحرمين،ج٢،ص ٧٧،٧٨،٧٩،٨١؛نصيف،حسين محمد،ماضي الحجاز وحاضره،مكتبة ومطبعة خضير،مصر،ط١، ١٣٤٩ه،ص ١١٣